شروح الشناقطة على ديوان غيلان
منهج ابن ذى الخلال نموذجا*

محمد الأمين محمد محمود صهيب
أستاذ بجامعة نواكشوط .

إذا كانت الدراسات التاريخية الجامعية وغير الجامعية* *المعلقة بتاريخ بلاد شنقيط عموما لم تتمكن بعد من تغطية بعض الفترات ، رغم جدية بعض هذه الدراسات ، وتقادمها النسبى فإن السياق الذى اكتنف نشوء الدرس اللغوى خصوصا، وتطوره باعتباره ركنا أساسيا فى مناهج المحضرة الشنقيطية العتيقة ما زال، يتسم بالغموض والاستبهام فى كثير من جوانبه ، وما تزال الأسئلة الكبرى المطروحة بهذا الشأن بدون أجوبة حاسمة تشفى الغليل، إذ لا نعرف على وجه

---

* عبدالله العتيق بن ذى الخلال ت1342 هـ على الأرجح ، عالم لغوى جليل الشأن ، مدرس، مؤلف له : شرح ديوان ذى الرمة : تم تحقيقه بكلية الآداب جامعة نواكشوط مجزءا فى خمس رسائل للحصول على المتريز فى اللغة والآداب ما بين سنتى 92-1996 :
- شرح شعر الشعراء الستة الجاهليين – مخطوط .
- شرح المقصور والممدود ، حققه الأستاذ (المرحوم) سيدى بويا بن عمر بالمدرسة العليا للتعليم 1983 .
- شرح مطول على مثلث ابن مالك ، مخطوط .
- شرح مختصر على مثلث ابن مالك ، مخطوط .
- شرح على نظم ابن المرحل – مخطوط ، ذكره ابن حامد فى موسوعته (وهو مفقود) .
- مقامات وأشعار : حققها محمد عبدالله بن محمدن ، بكلية الآداب 1988 .

أما صاحب الديوان المشروح فهو غيلان بن عقبة المعروف بذى الرمة ت 117 هـ.

** تم نشر ملخص عن هذا الموضوع فى مجلة التعليم التربوية عدد 29 يمكن الرجوع إليه.

الدقة والتحديد متى ، أو أين نشأ المكون اللغوى بالمحضرة؟ أو كيف تطور؟ أو أى مجالات الحقل اللغوى كان الأسبق؟ أو من هم الرواد الأوائل؟

إن المعطيات المتوفرة لدينا فى هذا المجال – على ضآلتها – غير متصلة الحلقات ، فمن الراجح لدى أغلب المصادر التاريخية المهتمة بالموضوع أن النواة الأولى للمحضرة بهذه البلاد إنما تأسست على يد عبدالله بن ياسين (ت451 هـ) فى حدود سنة 431هـ[1] عندما أقام رباطا (زاوية) لأصحابه على الشاطىء الأطلسى الموريتانى لتعليمهم أمور الدين ، وإعدادهم للجهاد والفتوحات قبيل قيام الدولة المرابطية ، وأن أحد أمراء المرابطين وهو أبو بكر بن عمر (ت480 هـ) تأثره فى هذا السبيل ، فكان الجهاد شغله الشاغل ،. وكان له مجلس علم يتصدره العلماء والقضاة النابهون بتلك الحوزة ...

وممن نهضوا بهذه الجانب التعليمى : أبو بكر بن محمد بن الحسن الحضرمى (489 هـ) وإبراهيم الأموى ، وأبو بكر الركاز ، وعبدالله جد الزينبيين [2].

أما الحلقة الثانية من تاريخ الثقافة والمعرفة بهذه المنطقة فلم تتضح معالمها إلا بعد انفراط عقد دولة الإسلام بالإندلس ، وانبثاق اشعاعها العلمى ببر العدوة الدنيا ، وخاصة فى بلاد السوس والمجابات الواقعة جنوبى المغرب الأقصى والأوسط .

وهكذا يسفر القرن الحادى عشر الهجرى عن المحضرة وقد احتضنتها الحواضر المعمورة وقتئذ كولاته وتيشيت ووادان وشنقيط ، وانتبذت لها مواقع مختلفة فى جنوب البلاد «القبلة» ووسطها ، متنقلة بتنقل أحياء البدو الرحل . ثم تتالى المد الثقافى خلال القرون اللاحقة ينتشر ويتجذر .

وكان الدرس اللغوى المحضرى فى القرن الحادى عشر أحد مواد علوم الآلة

---

(1) المختار بن حامدن : حياة موريتانيا ، ج 2 ، ط 1 ، الدار العربية للكتاب 1990 ، ص5 .

(2) الخليل النحوى : بلاد شنقيط .. المنارة والرباط ، ط1 ، تونس 1987 ، ص 65 .

المكملة للعلوم الشرعية ، بما تتيح لطالب العلم من قدرة على تأصيل الأحكام واستيعابها واستنباطها والمقارنة بين مرجحات أصحاب المذاهب والنحل ، وقد ظهرت شروح أدبية محدودة فى هذه الفترة على قصائد فى المديح النبوى كلامية كعب بن زهير ، وبعض أشعار سيدى عبدالله بن رازكه ومحمد اليدالى [1] .

وفى بحر القرن الثالث عشر الذى يعتبر العصر الذهبى للثقافة العربية الاسلامية ببلاد شنقيط ظهرت المدارس اللغوية المختصة ، وانتشرت شروح الدواوين الشعرية ، وكان من أكثرها تداولا وأوسعها انتشارا : ديوان ذى الرمة غيلان وديوان الشعراء الستة الجاهليين .

الشروح الشنقيطية على ديوان ذى الرمة :

لم يحظ ديوان شعرى فى المحضرة الشنقيطية بما حظى به هذا الديوان من تدارس وتعاط ، وقد تكون هذه الحظوة مستمدة من غزارة لغته البدوية ، ومضارعة بيئة البلاد يومه للبيئة التى يتحدث عنها غيلان ، وموضوعات شعره المحببة لدى طلاب المحضرة الشنقيطية القديمة كالحديث عن قطع المفازات الهاذلة بواسطة عتاق النجائب ودؤوب الإدلاج بالعشى والتغليس بالإبكار ، وغزله العفيف الناضح بالحرمان والمعاناة ..

فضلا عن كونه مصدرا أساسيا من مصادر اللغة العربية فى المعاجم اللغوية القديمة : كلسان العرب لابن منظور ، والقاموس المحيط للفيروز آبادى وغيرهما من مصادر تراث العربية .

ومما يشى بتصدره الدرس اللغوى المتأدب كثرة شروحه الشنقيطية مما يعنى كثرة تدريسه فى المحاضر ، فمن التقاليد المحضرية الشائعة أن تتحول دروس الشيخ وأماليه إلى كتاب يشرف بنفسه على جمعه وترتيبه ، بمساعدة من بعض طلبته النابهين .

---

(1) محمد الأمين محمد محمود صهيب : مجلة التعليم عدد 20 ، ص : 159 - 165 .

وممن تصدوا لشرح أشعار ذى الرمة قديما [1]:

- زيادة بن حامتو الديمانى ت 1248 هـ .
- محمد بن سيد أحمد المالكى 1302 هـ .
- حبيب الله بن المقرى الحسنى .
- عبدالله العتيق بن ذى الخلال اليعقوبى 1342 هـ .
- محمد بن عبدالله الرمضانى 1372 هـ .
- محمد سالم بن الشين الدكوجى .1387
- الشيخ محمد عبدالله بن أحمذى الحسنى .

منهج ابن ذى الخلال فى الشرح والتفسير :

أولا : التبويب : يتأثر ابن ذى الخلال النهج الأكثر تداولا بين شراح الدواوين، ومؤداه أن يبتديء الشارح بمقدمة عن أسباب التأليف ودواعيه ، ثم يشفعها بمهاد عن حياة الشاعر ، ثم يشرع فى شرح النصوص .

وهكذا بدأ عبدالله العتيق شرحه بمقدمة مقتضبة بين فيها أنه إنما ألف هذا الكتاب نزولا عند رغبة «بعض أحداث الزمان»بهدف ضبط ألفاظ شرح غيلان حتى تكون بمنجاة من التحريف والتصحيف [2]. ومن البين أن الدافع الحقيقى تعليمى بالدرجة الأولى .

أما المبحث الثانى فكان عن حياة ذى الرمة وأخباره ، وكيف وقع فى أحابيل حب مية الآسر ، فأورد فى ذلك قصصا وأخبارا ذات صلة بالتاريخ، وبالأدب واللغة ، من شأنها أن تهيئ المتعلم ذهنيا ونفسيا لتلقى النصوص الشعرية وتلقفها وتملى محاسنها ، ثم تنتقل به إلى القسم الثالث وهو شرح الشعر (بيت القصيد) .

---

(1) المختار بن حامدن (مصدر سابق ، ص :60) .

(2) محمد محمود بن حبيب الله تحقيق الجزء الأول من شرح ابن ذى الخلال ، ص : 16 .

ثانيا : آليات الشرح والتفسير :

تتدرج الشروح الأدبية فى إطار النقد التطبيقى أو التفسيرى كما يسميه البعض، وهو يعتمد نهجا «فيلولوجيا» قوامه دراسة اللغة معجمياونحويا، والتنقيب فى الأساليب ، والغوص على المعانى وتقديم الحجج والشواهد التعضيدية، وتنقسم مناهج الشرح إلى أقسام متعددة أشملها وأكثرها استعمالا الشرح الجامع ، وهو الذى يهتم بالمعنى المعجمى والسياقى ويتبع الإشارات التاريخية وأسماء الأعلام وهلم جرا. وهو المنهج الذى إعتمده ابن ذى الخلال ، وإن كان الشغل الشاغل بالنسبة إليه ضبط اللفظ وتحديد هويته ، وهو يتوسل بآليات متعددة ، وفنيات مختلفة سبيلا إلى بلوغ مرامه من ضبط وتفسير ، بعضها يتعلق ببنية اللفظ نفسه أو طبيعته ، ومنها ما يتصل بالمعانى فى مستوياتها المختلفة ، ومنها ما هو منوط بالإشارات التاريخية والأعلام عموما .

أ – الجوانب المتعلقة بطبيعة اللفظ :

سبق أن نوهنا بتركيز الشارح على ضبط اللفظ بدقة ، بوصفه غاية الشرح المستهدفة ، يقول فى مقدمة شرحه شعر ذى الرمة «... وبعد فقد سأل منّى أحداث الزمان أن أضع على قصائد غيلان تقييدا يمنعها التصحيف والتحريف ..» [1] وفى مقدمة شرحه شعر الستة «... فتجاسرت عليه لحل ما تيسر من إشكاله وضبط أسمائه وأفعاله» [2] . ولتحقيق هذا الهدف يتبع عدة طرق إجرائية :

1 – تحديد حركات الحروف وصفيا (بالفتح .. بالكسر ..) غير مكتف بتشكيلها :

«أناة تلوث المرط منها بدعصة ركام وتجتاب الوشاح فيقلق ...

---

(1) المصدر السابق الصفحة نفسها .

(2) انظر مقدمة المؤلف شرح أشعار الستة الجاهليين .

المرط بالكسر الإزار، والدعصة بالكسر الرمل وركام بالضم بعضها فوق بعض والوشاح بالكسر ويضم القلائد» [1].

2 - **قياس اللفظ المشروع بلفظ أخر أكثر شهرة وتداولها :**

«كأن مطايانا بكل مفازة قراقير فى صحراء دجلة تسبح

القراقير جمع قرقور كعصفور ضرب من السفن ...» [2].

3 - **تأصيل اللفظ :**

ونعنى به عزوه إلى إحدى القبائل إذا كان لهجة خاصة أو ذكر عدم فصاحة إحدى الروايات المسموعة فيه كتعليقه على لفظ دجلة فى البيت السابق «ودجلة بالكسر وتفتح فى غير الفصيح» .

4 - **التدقيق فى روايات النص :**

وذلك بذكر الروايات المسموعة فيه وعزوها إلى أصحابها غالبا .

5 - **تحديد رسم اللفظ :**

وذلك عندما يلاحظ أن لفظا ما مشكل الكتابة كتعقيبه على كلمة «المعى» من قول ذى الرمة :

بصلب المعى أو برقة الثور لم يدع لها جدة مر الصبا والجنائب

«... والمعى تكتب بياء» [3] .

---

(1) سلمى بنت محمد / تحقيق الجزء الثالث من شرح ابن ذى الخلال ، ص:38 .

(2) محمد محمود بن حبيب الله (م .س) ص: 78 .

(3) المصدر السابق ، ص : 18

6 - تحديد اللفظ عن طريق تحديد صيغته الصرفية :

كضبطه للفظ «مجادلة» من قول ذى الرمة :

تفادى شهود الزور عند ابن وائل ولا ينفع الخصم الألد مجادله

«المجادل بزنة اسم المفعول جادله» [1].

ب - الجوانب المتعلقة بالمعنى :

بعد ضبط اللفظ يتم شرحه معجميا وإرجاعه غالبا إلى أحد مصادره الأساسية كلسان العرب ويرمز إله بـ (س) أو القاموس المحيط ويرمز إليه بـ(ق) أو غيرهما ، مكتفيا بالشرح المعجمى إذا لم يكن فى المعنى تعقيد أو غموض ، وإلا فسر الغموض وحدد الوظائف الإعرابية ، وأورد المعنى الإجمالى كما فى النموذج التالى :

ورعن يقد الآل قدا بخطمه إذا غرفت فيه القفاف الخواشع

.. فلاة رجوع الكدر أطلاؤها بها من الماء تأويب وهن روابع

«فلاة بدل كل من بعض وهو الرعن ، ورجوع مبتدأ خبره تأويب ، أى إتيان القطا افراخه فى رجوعه إليها من الماء تأويب ، أى إتيان ليلا، وأطلاؤها... جملة حالية» [2] .

جـ - الجوانب المتعلقة بالوقائع والأعلام :

لابن ذى الخلال اهتمام بتقصى هذه الجوانب وتتبعها ما عنت له ، فإذا صادفه علم على شخص أو مكان وقف عند دلالته اللغوية والاصطلاحية ، ففى

---

(1) محمد عبدالله بن المختار ، تحقيق الجزء الرابع من شرح ابن ذى الخلال ، ص : 36 .

(2) سلمى بن محمد (مرجع سابق) ، ص : 24 .

مستهل حديثه عن ذى الرمة مثلا نجده يقول : «ذو الرمة غيلان بن عقبة... والرمة قطعة الحبل البالية» . وكتعريفه لـ«بلاد نجد» بقوله «النجد ما ارتفع من الأرض ، وبلاد نجد ما يلى الحجاز ...» .

وهكذا إذن كانت شروح الشعر عند أساتذة المحاضر الشنقيطية تتسم بغزارة المادة التراثية من قرآن وحديث وأشعار وحكم وأقوال مأثورة و تستجيب لمتطلبات دارس اللغة ، فهى تجمع إلى التفسير اللغوى تعليم النحو والصرف والبلاغة والأخبار، واستخراج المعانى إن فى المستوى المعجمى أو فى التحولات الدلالية المتأتية من تصاقب الألفاظ جراء عملية النظم .